

الفصل الأول

obeikandi.com

شیراز وطن صدر الدین:

وهی من مدن ایران الجنوبية واقعة على بعد (٢٩) درجة و(٢٧) دقيقة من العرض الشمالی و(٥٢) درجة و(٤٠) دقيقة من الطول الشرقي من (کرینج لندن) و(٦٠) كيلو متراً من أتلال^(١) استخر الذي يسميه الإفرنج (برس بليس) ويسمى أيضاً (تخت جمشيد) أي (عرش جمشيد) وفيه آثار جميلة وصور بديعة هي آيات خالدة تدل على عظمة الملوك الفارسيين القدماء، وأحرق الإسكندر هذا البناء الجميل العجيب الصنع الشهير، باعتدال هواء وصفاء مائه العذب وجمال رياضه الفتان وبهاء حقوله تجلت فيه الطبيعة بياهر ذلك الجمال، الذي حرك أوتار نفس السعدى الشاعر الفارسى الطائر الصيت، فقال:

خوشا تفرج نوروز خاصه درشیراز که برکنددل مرد مسافراز وظنش
عزیز مصر چمن شد جمال یوسف گل صب چودر چمن آوردبوی پیرهنش
أى حبذا التفرج فى نیروز^(٢) ولا سيما فى شیراز التى تنسب الغریب
وطنه والمرج أو الروض أصبح كعزیز مصر، والورد كجمال یوسف حین أتى

(١) (المجمع) لعل المؤلف يريد أطلال اصطخر.

(٢) نیروز هو عيد الفرس الكبير، يوم أول الربيع والسنة.

الصبا إليه بشذا قميصه. وهذا وصف جميل بديع لهذا البلد الطيب. وأهله أذكاء المشاعر متلهبو الذكاء، امتازا بصفاء الروح وجمال الصور تتدفق خواطر كثير منهم بالشعر مشهورون بالميل إلى اللهو والترف.

بنى هذه المدينة أولاً شيراز بن تهمورث، ثم جدد بناءها بعد الخراب محمد بن القاسم، ابن عمر الحجاج في صدر الإسلام، وكانت معسكراً للمسلمين لما هموا بفتح استخر (اصطخر)، وكانت عاصمة (آل بويه) وغيرهم من الملوك وعاصمة (كريم خان) الزند. وقد أنجبت غير واحد من رجال العلم المشهورين من الفلاسفة الكبار والشعراء العظماء. كالإمام أبي إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ، والعلامة قطب الدين محمود بن مسعود تلميذ نصر الدين الطوسي الفلكي وصاحب الاختيارات في (الهيئة) وحل مشكلات المجسطي المتوفى سنة ٧١٠هـ، ومصلح الدين سعدى الشاعر المعارف الشهير المتوفى سنة ٦٩١هـ. وشمس الدين حافظ محمد العارف الشاعر المتوفى سنة ٧٩١هـ أو ٧٩٤هـ وغيرهم ممن تفتخر بهم (فارس).

فى هذه المدينة الجميلة ولد صدر الدين وأصبح قبساً منيراً فى سماء العلم بعد حين، وفيها نمت عواطفه واتقدت فطنته والتهب ذكاؤه، كذلك الترب الخصبه تنبت الزنبقة.

أسرته:

هو صدر الدين محمد بن إبراهيم القوامى الشيرازى الشهير بالأخوند (الأستاذ) المولى صدرًا.

أسرة قوام فى شيراز، أسرة عريقة فى النسب والشرف. والقوام لقب عام لرئيس هذه الأسرة فى كل عصر ولا تزال الرياسة قائمة فيهم إلى هذا الزمن.

ورأس هذه الأسرة هو القوام الذى كان معاصراً لحافظ شمس الدين
الشاعر السابق الذكر، وأثنى عليه فى بعض قصائده بقوله:

درباى اخضر وفلك وكشتى وهلال هستند غرق نعمت وحاجى قوام ما
معنى البيت أن نعمة قوام عمت البر والبحر، بل الفلك والفلك
والهلال شملتها نعمته. وهو مبالغة شعرية فى مدحه.

وشك بعض كبار علماء شيراز فى نسبة صدر الدين إلى هذه الأسرة،
وقال على ما رواه الثقات عن أن قوام الذى ينسب إليه صدر الدين غير قوام
المعاصر للحافظ شمس الدين، ولكن اشتهرت نسبته إلى هذه الأسرة
الشريفة.

ولادته:

ولد هذا الحبر الجليل بعد النصف من القرن العاشر الهجرى على
الرجح، من أب شيرازى اسمه إبراهيم، وكان وزيراً فى فارس (شيراز). ولم
تعرف سنة ولادته فى الكتب التى ورد ذكره فيها، إلا أن الأرجح أنه ولد بعد
النصف من القرن العاشر الهجرى، لأن أعماله الخطيرة العلمية ووضع تأليفه
الكبيرة التى تربو على أربعة وأربعين أو خمسة وأربعين تأليفاً وتصنيفاً، ومدة
اشتغاله بدرس الفلسفة والحديث والفقہ والتصوف، واعتزاله فى جبال (قم)
عدة سنين، تاركاً التأليف والتصنيف، كما سيشير إليه فى كلامه الآتى ذكره.
كل ذلك يحتاج إلى زمن أكثر من خمسين سنة، أى الخمسين سنة بعد القرن
العاشر التى وقع فيها موته، إذا قلنا أنه ولد فى فجر القرن الحادى عشر.

ولما لم يولد لأبيه الوزير ولد في مدة طويلة طلب إلى الله طلباً حثيثاً أن يرزقه صبيّاً فرزقه (صدرّاً) بعد أن دعا أدعية طويلة، وفي أيام عديدة وبعد أن تصدق على المحتاجين والمقتيرين، ولا سيما بعد أن تصدق بثلاثة توامين^(١) فوزّعها على أناس فقراء مارين، ولم يكن له غيرها، ومنذ طفولته لقب الولد (صدرّاً) لفضله الكبير واختار له مهذباً حاذقاً، وما عتم أن ظهرت عليه أمارات الذكاء.

وكان والده ذات يوم وكّله على البيت وعلى رعاية ما فيه، ثم أراد الوقوف على ما أنفقته في المدة المذكورة، فرأى أن بين النفقات اليومية ثلاثة توامين في باب الحسنات، فتعجب والده الوزير من هذا الأمر، وقال لابنه ما هذا؟ قال ابنه: يا أبى هذا ثمن ما يكلفك إياه ولدك. وفي صنعة هذا دلالة على جوده، وإن فطرته كانت تهتز للمعروف.

وروده إلى أصبهان:

ولما ذهب من شيراز إلى أصبهان تعرف في حمام من حمامات المدينة إلى السيد أبى القاسم الفندرسكى^(٢)، وكان السيد في عهده من أكابر العلماء في علوم ما وراء الطبيعة. ولم يكن السيد يعرفه لكن لما سلم عليه، قل له السيد لا شك في أنك غريب عن البلدة يا ولدى، قال الصدر: نعم. قال له: ومن أى بيت أنت، ومن أى مدينة؟ ولأى سبب قدمت إلى أصبهان؟ فقال:

(١) (المجمع) التوامين جمع تومان وهو نقد إيراني ذهبى وقيمته ٨ فرنكات و ٨١ سانتيمًا.

(٢) سيأتى ذكر السيد فى ضمن تراجم أساتذة صدر الدين.

إني من (فارس) وقدمت إلى هنا لأتم دروسى . قال السيد: على أى العلماء تريد أن تقرأ؟ قال: على من تختاره لى . قال السيد: إذا أردت أن توسع عقلك فعليك بالشيخ بهاء الدين ، أما إذا أردت أن يفتق لسانك فعليك بأمير محمد باقر . فقال: إني لا أعنى بلسانى ، فذهب إلى الشيخ بهاء الدين فأخذ يتلقى العلم عنه من فلسفة وكلام ، وكان طموحاً إلى أن يعرف أفكار اليونانيين وما دونوه فى كتبهم ، ولذلك كان يصرف كل دراهمه فى مشتري الكتب الفلسفية ، فأجاد فى كل ما سمعه عن أستاذه ، حتى إن معلمه قال له ذات يم تلقيت جل علومى وعرفه بالمير محمد باقر الداماد ، فقال له : اذهب إليه وأتني منه بكتاب ، وكان ذلك وسيلة لتعرفه إليه .

ولم يدر فى خلد الصدر أن وراء الأكمة ما وراءها ، فواجه الأستاذ المنطقى من غير أن يخامر ريب ، وفى ذلك الوقت كان مير محمد باقر يعلم ، فسمع الصدر درسه . ولما عاد التلميذ إلى أستاذه قال له شيخه : ما كان يفعل مير محمد باقر؟ قال : كان يدرس . فقال شيخه : إني لم أكن محتاجاً إلى طلب كتاب من مير محمد باقر ، إنما اتخذت من هذه الوسيلة لكى أعرفك بدروسه ، وتحكم بنفسك على مقدرة علمه ، فينبغى أن تتلقى علومه فأطاع الصدر ، وفى بضع سنوات بلغ الدرجة القصوى من البلاغة وهى الدرجة التى عُرف بها .

آراء الفقهاء فى اعتقاد صدر الدين :

وهذا الفيلسوف كأمثاله من الفلاسفة الأحرار ذوى الأفكار النيرة ، لم يسلم من الانتقاد المر والتحقير ، وأصبح هدفاً لسهام اللوم والتكفير . وهناك بعض الأقاويل فى شأنه من مقاربي عصره معاصريه .

قال السيد نعمة التستري^(١): لما وردت شيراز لم أتكل إلا على ولد صدر الدين الشيرازي واسمه (ميرزا إبراهيم)، وكان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية، فأخذت عنه شطراً من الحكمة والكلام، وقرأت عليه حاشيته على حاشية شمس الدين الخفري على شرح التجريد، وكان اعتقاده في الأوصل خيراً من اعتقاد أبيه، وكان يتمدح ويقول اعتقادي في أصول الدين كاعتقاد العوام وقد أصاب في هذا التشبيه اهـ.

وقال الشيخ يوسف البحراني^(٢): ولصدر الدين ابن فاضل اسمه (ميرزا إبراهيم) وكان فاضلاً متكلماً جليلاً نبيلاً عالماً لأكثر العلوم، ولا سيما في العقليات والرياضيات. قال بعض أصحابنا بعد الثناء عليه، هو في الحقيقة مصداق قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ قد قرأ على جماعة منهم والده، ولم يسلك مسلكه، وكان على ضد طريقة والده في التصوف والحكمة.

وقال صاحب روضات الجنات^(٣) (وكانه سلك الطريق الوسطى): ويوجد في غير واحد من مصنفاته (أي مصنفات صدر الدين) كلمات لا

(١) عالم شهير له بعض آثار علمية ولد سنة ١٠٥٠هـ وتوفي ١١١٢هـ.

(٢) الشيخ يوسف البحراني من كبار محدثي الإمامية وفقهائهم، ولد سنة ١١٠٧هـ، وتوفي في سنة ١١٨٦هـ.

(٣) هو محمد باقر بن أمير زين العابدين من فضلاء المتأخرين، ولد في ٢٢ صفر سنة ١٢٢٦هـ بقصبة خونسار، وتوفي في ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٣هـ بأصبهان، وكتابه روضات الجنات في تراجم العلماء مشهور، طبع في إيران في سنة ١٣٠٧هـ.

تلائم ظاهر الشريعة كأنها مبنية على اصطلاحاته الخاصة، أو محمولة على ما لا يوجب الكفر وفساد اعتقاد له بوجه من الوجوه، وإن أوجب ذلك سوء ظن جماعة من الفقهاء الأعلام به وبكتبه، بل أفتى طائفة منهم بكفره.

فمنهم من ذكر في وصف شرحه على الأصول (أصول الكافي)^(١) شروح الكافي كثيرة جليلة قدرًا، وأول من شرحه بالكفر (صدرًا)، وقال الشيخ يوسف البحراني السابق الذكر في شأن تلميذه (المحسن الفيض) الآتي ذكره:

له من المقالات على مذهب الصوفية والفلاسفة ما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله مثل ما يدل في كلامه على القول بوحدة الوجود، وقد وقفت به على مقالة قبيحة صريحة في القول بوحدة الوجود، قد جرى فيها على عقائد ابن عربي، وأكثر فيها من النقل عنه، وإن عبر عنه ببعض العارفين وقد أوردنا جملة من كلامه في تلك المقالة وغيرها في رسالتنا^(٢)، في الرد على مقالته، نعوذ بالله من طغيان الأفهام وزلل الأقدام، وقد تلمذ في الأصول (أى أصول العقائد) للمولى صدر الدين الشيرازي، ولذا كانت كتبه الأصولية على قواعد الصوفية والفلاسفة.

بل كان في عصره هدفًا لسهام لوم أكثر عارفيه من أهل الجمود أيضًا،

(١) كتاب أصول الكافي أحد الكتب الأربعة المعتمدة في الحديث عند الإمامية لجامعة الإمام المحدث أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الكليني الرازي المتوفى سنة (٣٢٨) أو (٣٢٩).

(٢) اسم هذه الرسالة (النفحات المملوكية في الرد على الصوفية).

على أنا نجد قليلاً من معاصريه ومقاربي عصره الذين لم يعيشوا عن نور الحق يعظمونه ويجلونه حق تعظيمه وتبجيله. قال السيد على خان صاحب سلافة العصر في ضمن ترجمة الملا فرج الله التستري المعاصر له ما نصه:

قال مؤلف الكتاب (عفى الله عنه) أعيان العجم وأفاضلهم من أهل هذه المئة كثير و العدد، ومنهم الملا صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي الشهير بالملا صدرًا، كان أعلم أهل زمانه بالحكمة متفنتًا بسائر الفنون، له تصانيف كثيرة عظيمة الشأن في الحكمة وغيرها.

وقال صاحب أمل الآمل محمد بن إبراهيم الشيرازي فاضل من فضلاء المعاصرين، ثم نقل نص عبارة صاحب السلافة الأنفة الذكر. وقال الشيخ يوسف البحراني محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي، الشهير بالمولى صدرًا كان حكيماً فيلسوفاً صوفياً بحتاً.

وقال صاحب روضات الجنات^(١) من المتأخرين:

صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي الشهير بالمولى صدر كان فائقاً على سائر من تقدمه من الحكماء الباذخين والعلماء الراسخين، إلى زمن نصير الدين الطوسي الفلكي الفيلسوف المتوفى سنة ٦٠٦.

إن من درس هذه الكلمات يعلم أن السير على آثار الآباء والتقليد في العقائد الدينية، وترك الاعتداء بنور العقل والفلسفة كانت في ذلك العصر أوصافاً تعدّ فضيلة لصاحبها، وفيها حياة له، كما أن في الفلسفة موتاً للفيلسوف.

(١) (ص ٣٣١ ج ٢).

نقل مؤلف كتاب قصص العلماء^(١) أن ملا محرابعلی الأصبهانی أحد العرفاء الصوفيين المعاصرين لأبيه الشيخ سيلمان، وجد يوماً الملا محمد كاظم الهزارجریبی عند قبر الحسين (عليه السلام) في كرباء، أخذ بعد صلاة الصبح يلعن كبار العرفاء الصوفيين واحداً بعد واحد حتى لعن المولى صدرأ مات مرة.

ثم لعن الملا محرابعلی فسئل الملا محرابعلی وهو لا يعرف الملا محرابعلی عن سبب لعنه له، قال إنه يعتقد بوحدة واجب الوجود، فقال له فالعنه فإنه حقيق بلعنك بهذه العقيدة، ولم يكن يميز بين الاعتقاد بوحدة الوجد ووحدة واجب الوجود.

وفاته:

اتفق الشيخ يوسف البحرانی وصاحب أمل الآمل^(٢) وروضات الجنات على أن توفي في ضمن العشر الخامس من المائدة الحادية عشرة.

وخالفهم محمد حسن خان (صنيع الدولة) مؤلف كتاب (منتظم ناصری^(٣)) الذي وضعه في وقائع السنين في الشرق والغرب، وسمى الكتاب باسم الشاه ناصر الدين القاجاری، قال في صفحة (١٩٦ ج ٢) من كتابه أن

(١) قصص العلماء كتاب في تراجم العلماء لمؤلفه محمد بن سليمان التنكابنی الموجود في عصر ناصر الدين شاه القاجار.

(٢) صاحب أمل الآمل هو محمد بن الحسن الشهير بالحر العاملی، ولد سنة ١٠٣٣، ولم تثبت عندي سنة وفاته.

(٣) صنيع الدولة من فضلاء عصر ناصر الدين شاه وأدبائه المشهورين وأمرائه الأجلة.

صدر الدين توفى فى سنة (١٠٥٩هـ) (١٦٤٩م) وحدثت وفاته فى البصرة حين توجهه إلى مكة.

كلماته وشكواه عن أهل عصره:

يظهر من بعض كلماته أنه سئم من جهلة أهل عصره يقول فى ديباجة كتابه (الشواهد الربوبية) بعد الحمد وأصلى على نبيه وآله المطهرين من ظلمات الخواطر المضلة المحفوظين فى سماء قدسهم وعصمتهم عن طعن أوهام الجهلة، واستعيذ به من جنود الشياطين، ثم قال: (اللهم اجعل قبور هذه الأسرار صدور الأحرار)، وقال فى فاتحة كتابه (الأسفار) بعد بيان عزمه على تصنيفه.

ولكن العوائق كانت تمنع عن المراد وعودى الأيام تضرب دون بلوغ الغرض بالأسداد، فأعقدتني الأيام عن القيام، وحجبنى الدهر عن الاتصال إلى المرام، لما رأيت من معاداة الدهر بتربية الجهلة الأراذل وشعشة نيران الجهالة والضلال، وراثثة الحال وركاكة الرجال، وقد ابتلينا بجماعة غاربي الفهم، تعشو عيونهم عن أنوار الحكمة وأسرارها، وتكل بصائرهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها، يرون التعمق فى الأمور الربانية والتدبر فى الآيات السجانية بدعة ومخالفة أوضاع جماهير الخلق من الرعاع ضلالة وخذعة، إلى أن قال: فأصبح الجهل باهر الريات، فأعدموا العلم وفضله، واسترذلوا العرفان وأهله، وانصرفوا عن الحكمة زاهدين ومنعوها معاندين، ينفرون الطباع عن الحكماء، ويطرحون العلماء العرفاء الأضياء، وكل من كان فى بحر الجهل والحمق أولج، وعن صفاء المعقول والمنقول أخرج، كان إلى زوج القبول والإقبال أوصل، وعن أرباب الزمان أعلم وأفضل:

كم عالم^(١) لم يلج بالقرع باب منى وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا
وكيف ورؤساؤهم قوم عزل من سلاح الفضل والسداد، عارية مناكبهم
عن لباس العقل والرشاد.

يشير هذا الكلام إلى أن صدر الدين لم يكن يستطيع من التصريح
بفلسفته كما يأتي النص عليه في كلامه في مبحث علم البارى تعالى، حيث
يقول فى رأيه فى علمه تعالى أنه لا يرى فى التصريح به مصلحة، وتنبه على
ذلك من درس حياة صدر الدين من الإفرنج. ففى كتاب (الكنت دوى
كويينو) ومعلمة الإسلام الإنجليزية أن صدر الدين أخفى مذهبه من باب التقية
(الكتمان)، خوفاً من اضطهاد المجتهدين له، وغشاه قصداً بألفاظ معماة
ومقالته بث شكوى من أهل الجمود ومتفهمة عصره، الذين دأبهم فى كل
عصر ومصر محاربة أحرار الأفكار بسلاح الدين، وإن كانوا لا يعرفون من
الدين إلا قشره، وهم أبعد من لبه كبعد السماء والأرض.

أهل الجمود والعوام فى نظره:

نظر صدر الدين إلى أهل الجمود والعوام بالاحتقار. يقول فى أول كتابه
(الأسفار) بعد وصف فضل الفلسفة، وأنها طريق معرفة الحق الوحيد، وليعلم
أن معرفة الله تعالى وعلم المعاد وعلم طريق الآخرة، ليس المراد بها الاعتقاد
الذى تلقاه العامى أو الفقيه وراثتاً وتلقفاً، فإن المشغوف بالتقليد والجمود على
الصورة لم يفتح له طريق الحقائق كما يفتح لكرام من الإلهيين.

(١) وفى نسخة عاقل.

ويقول إنى أستغفر الله كثيراً مما ضيعت شطراً من عمرى فى تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام.

حتى تبين لى بنور الإيمان وتأييدات المنان أن قياسهم عقيم وصراطهم غير مستقيم.

تأثير معارضة أهل الجمود للفلسفة فى نفسه:

لما لم يجد إقبالاً عليه وعلى الفلسفة من أهل عصره، كما يريد سئم وحمد خاطره الفياض، وترك التدريس والتأليف مدة من الزمن، يقول فى كتابه الكبير ضربت عن أبناء الزمان صفحاً وطويت عنهم كشحاً، فأجأنى خمود الفطنة وجمود الطبيعة لمعاداة الزمان، وعدم مساعدة الدوران إلى أن انزويت فى بعض نواحي الديار (لعله يشير إلى هجرته إلى بعض جبال قم)^(١)، واستترت بالخموم والانكسار، منقطع الآمال منكسر البال، متوفراً على فرض أؤديه وتفريط فى جنب الله أسعى فى تلافيه لا على درس ألقيه، أو تأليف أتصرف فيه إذ التصرف فى العلوم والصناعات وإنارة المباحث والمعضلات ودفع المعضلات وتبيين المقاصد ورفع المشكلات، مما يحتاج إلى تصفية الفكر وتهذيب الخبال، عما يوجب الملل والاختلال واستقامة الأوضاع والأحوال مع فراغ البال.

(١) قم مدينة فى ١٢٠ كيلومتراً من جنوب طهران الغربى، وكان بدء تمصيرها فى أيام حجاج بن يوسف سنة ٨٣ تقدهسها الإيرانيون، فإن فيها دفنت أخت الإمام على بن موسى الرضا عليهم السلام، وهى الآن تعد من المدارس الدينية الكبرى ويدرس فيها الفقه والأصول والأدب.

ومن أين يحصل للإنسان مع هذه المكاره التي يسمع ويرى من أهل الزمان، ويشاهد مما يكب عليه الناس في هذا الأوان من قلة الإنصاف وكثرة الاعتساف وخفض الأعالى الأفاضل، ورفع الأدانى والأراذل، وظهور الجاهل الشرير والعاصى النير، على صورة التحرير، وهيئة الخبر الخبير إلى غير ذلك من القبائح والمفاسد الملازمة الفاشية اللازمة، والمتعدية بحال المخاطبة فى المقال وتقرير الجواب عن السؤال، فضلاً عن حل المعضلات وتبيين المشكلات، ثم تمثل برباعى من رباعيات (الفرس) وهو:

از سخن پردُ رمکن همچون صدف هر گوشرا

قفل کوهر ساز یاقوت زمرد بوشرا

در جواب هر سؤالی حاجت کفتار نیست

چشم بینا عذر می خواهد لب خاموشرا

(١) معناه: لا تجعل كثيراً كل أذن غير واعية مشحونة كالأصداف بدرر المعانى.

(٢) واقفل شفتيك الياقوتتين.

(٣) لا حاجة للمقال فى جواب كل سؤال.

(٤) فإن العين البصيرة تعذر الشفة السكنة للإنسان.

ثم اقتبس كلام أمير المؤمنين على عليه السلام، وقال: اقتفيت أثر على عليه السلام، مُطلق الدنيا مؤثراً الآخرة على الأولى، فأمسكت عنانى عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم، وأيست من مرافقتهم ومؤانستهم، وسهلت على معاداة الدوران ومعاندة أبناء الزمان، وخلصت عن إنكارهم وإقرارهم

وتساوى عندى إعزازهم وإضرارهم، فتوجهت توجهاً غريباً نحو مسبب الأسباب، وتضرعت تضرعاً جليلاً إلى مسهل الأمور الصعاب، فلما بقيت على هذه الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال زماناً مديداً وأمداً بعيداً، واشتعلت نفسى بطول المجاهدات اشتعالاً نورانياً، والتهب قلبى التهاباً قوياً، ففاضت عليها لكثرة الرياضات أنوار الملكوت، وحلت بها حنايا الجبروت ولحقتها الأضواء الأحدية، وتداركتها الألفاظ الإلهية فاطلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن، وانكشف لى رموز لم تكن منكشفة هذه الانكشاف من البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان انتهى».

وأنت تعلم أيها القارئ أن هذه الكلمات التى ملؤها لشكوى من الجهل والجاهل وعصر الجهل، لا تصدر إلا عن نفس رجل بلغ فى العلم وتذكية النفس مرتبة رفيعة، وحاول أن يستضىء الناس بنبراس علمه، ويسلكوا سبيل الهدى الأمثل ويتبعوا نور الشمس العقل الأجل.

ثم وجد الأقدار تجرى على خلاف ما يرومه، فثغر الجاهل وتكرمه وتذل العالم وتلجمه، ورأى من اتبع نور العقل أصبح هدفاً لسهام الجهل. فسئم من الحياة وقطع عنها كل الصلات ونظر إلى العالم نظرم المتحير وطلب النجاة من الله العزيز القدير، وكانت حاله فى تركه وطنه وانزوائه فى جبال ثم واستظلاله تحت ظلال السكون والوحدة، للتفكر فى ملكوت السموات والأرض والتأمل فى الأسرار الإلهية تشبه حال الإمام (الغزالي) فى تركه بغداد وتأملاته فى القدس والشام، فكلاهما جعلتا تهذيب النفس بالرياضة والمجاهدة، وتحليتها بالفضائل وتخليتها عن الرذائل سبيلهما الموصل إلى الله

الجليل والعارج بهما من مرتبة البرهان - إلى عالم الشهود والعيان ذاك عاد بعد سنين إلى بغداد فسلك سبيل الرشاد، وهذا نزل من جبال قم وفجر عين خاطره الفياض فصنف وألف وأجاد.

حالة إيران العلمية فى العصر الصفوى:

يحسن بنا أن نذكر كلمة فى حالة إيران العلمية فى العصر الصفوى لتتسع بها إحاطة القارئ الكريم بنواحي البحث.

إن من جال ديار الفرس ونظر إلى مدارسها المبنية فى عصر الملوك الصفويين، يتمثل أمامه سعى هؤلاء الملوك العظماء وأمرائهم ورجالهم فى نشر العلوم، ولا سيما علوم الدين فإنه يجد فى أصفهان كرسى المملكة الصفوية، وسائر ديار إيران معاهد علمية ومدارس فخمة بنيت على الطراز القديم تلاً لأقبابها الزرقاء بين أشجار وأزهار وبستان وريحان.

وحجرات الطلاب مطلة عليها وجدرانها مزينة بالفسيفساء على أجمل طرز تسحر العيون كثيراً ما نقشت فيها آيات قرآنية ونصوص دينية.

فصورة قطعة من مدرسة الخان فى شيراز التى تراها فى ضمن هذه الرسالة تمثل لديك جمال البناء فى القرنين العاشر والحادى عشر وهندسته فى إيران، وكانت عناية هؤلاء الملوك والأمراء والذين أتبعوهم بإحسان لنشر العلم سبباً لوقف أملاك كثيرة من أراضى ومزارع وقرى لصرفها فى سبيل العلم ونشره وترقية طلبته.

فبقية تلك الأملاك الموقوفة فى العصر الصفوى الآن فى إيران، يبلغ ثمنها ملايين من الجنيهات، وكان هؤلاء الملوك ورجالهم بأنفسهم يتفقدون

حال طلبة العلم ويكرمونهم غاية الإكرام. وفي كتاب المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى أن أم الشاه عباس الصفوى الكبير على جلالها مع جماعة من الأميرات الشريفات كن يأتين المدارس فى كل شهر مرة ويسألن عن حال الطلاب، ويجمعن ثيابهن ليغسلن أوساخها ويعطينهم ثياباً جديدة لئلا يشتغلون بغير الدرس، وهذا الصنع الجميل يدل على كبير اهتمامهم بنشر العلم وترقية شؤون الدين فى هذه المعاهد العلمية، كان الطالب يتلقى دروسه من الصرف والنحو والمنطق والمعانى والبيان وسائر فروع العلوم العربية والأدبية والفقه وأصوله، والحديث والكلام والعلوم الرياضية بجميع فروعها، والأخلاق وقليل من الفلسفة الإغريقية، والحكمة الفهلوية على خفاء؛ لأن الفلسفة كانت تعد مخالفة لمبادئ الدين.

تلقية علومه وفلسفته:

ولما أتم صدر الدين دروسه الأولية فى شيراز رحل إلى أذربهان، حيث كانت مجمع رجال العلم والحكمة، ومقتبس نور العرفان فى إيران، وفيها كبار العلماء والحكماء والأساتذة والمدرسين أمثال: بهاء الدين العاملى، والمير محمد باقر الداماد، والمير الفندرسكى الآتى ذكرهم، وكان الطلبة يقصدونها من الأقطار الفارسية القريبة والنائية لتلقى العلوم العالية فيها.

أساتذته:

لا شك أن نفس مثل صدر الدين الظمأى إلى رشف كس العلم والحكمة، لا تقنع بأساتذة قليلين، فظنى قوى أنه أدرك كثيراً من شيوخ العلم والحكمة والأدب فى عصره، إلا أن أساتذته المشهورين هم الشيخ الإمام الجليل بهاء الدين العاملى، والفيلسوف الإلهى المير محمد الباقر الحسينى

الشهير بالداماد^(١)، وكانا بأصبهان والأول هو العالم الطائر الصيت بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني، ولد في بعلبك عند غروب الشمس يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة الحرام سنة ٩٥٣ ثلاث وخمسين وتسعمائة، وصاحب الشاه عباس الصفوى توفى في ١٢ شوال سنة ١٠٣٠ بأصبهان ونقل قبل دفنه إلى طوس (خراسان)، ودفن في جوار قب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، وقبره مشهور فيه. وأشهر كتبه: تشریح الأفلاك، ورسالة نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض، وخلاصة الحساب، ورسالة في بيان أن أنوار الكواكب مستفادة من الشمس، ورسالة في حل أشكال القم وعطارد وتفسيره المسمى بالعروة الوثقى.

فوض إليه منصب شيخ الإسلام من الملك الصفوى، وكان هذا المنصب ذا أهمية كبرى في ذلك العصر، والثاني هو محمد الباقر بن محمد الحسيني فيلسوف إلهي جليل، وفقه نبل كان شاعراً يجيد الشعر بالفارسية والعربية، وخطيباً مصقلاً خطب خطبة الملك في جامع أصبهان يوم جلس فيه الشاه صفى الصفوى في عرش الملك وصاحب الشاه عباس الكبير. توفى سنة ١٠٤٠ هـ على رأى صاحب منتظم ناصرى وسنة ١٠٤٠ على ما ذكره صاحب أمل الآمل. وأشهر كتبه: القبسات، والصراط المستقيم، والحبل المتين، وشارع النجاة في الفقه، وعيون المسائل لم يتم، كتاب نبراس الضياء،

(١) داماد بالفارسية الصهر اشتهر به لأن أباه محمد كان صهر الشيخ على بن عبد العال الكركى الشهير بالمحقق الثانى بين علماء الشيعة، وكان مشهوراً بالداماد، واشتهر به ابنه أيضاً.

وخلسة الملوك، والرواشح السماوية وهو فى علم الحديث والدراية، ونسخة من هذا الكتاب كانت موجودة عند صاحب روضات الجنات بخط صدر الدين، وكتاب السبع الشداد، والضوابط، والإيماضات والتشريفات، وشرح الاستبصار، وسدرة المنتهى فى تفسير القرآن.

وله رسالة فى أن المنتسب بالأُم إلى هاشم - من السادات الكرام على ما اختاره العلامة جمال الدين القاسمى الدمشقى، وله أيضاً حواشٍ على الكفاى، وكتاب من لا يحضره الفقيه، وهما من أهم كتب الحديث والمير الفندرسكى الذى أرشده إليهما هو أبو القاسم الفندرسكى وفندرسك من نواحى استراباد إيران^(١) حكيم إلهى صوفى زاهد شاعر كان بارعاً فى العلوم الرياضية والفلسفة، وارتاض فى الهند مدة مديدة، وبعد أن عاد من الهند إلى العراق دعا أهل العلم إلى مسلكه، توفى بين سنة ١٠٣٠هـ وسنة ١٠٤٠هـ.

تلامذته المشهورون:

ومن أشهر تلامذته محمد بن مرتضى المدعو بمحسن الفيض وهو ختن صدر الدين. كان عالماً محدثاً صلباً كثير الطعن على المجتهدين، وقد سبق كلام صاحب (لؤلؤة البحرين) الشيخ يوسف البحرانى فى مسلكه التصوفى تلمذ فى الحديث على السيد ماجد البحرانى فى مدينة (شيراز) وفى أوصل العقائد على الفيلسوف صدر الدين محمد بن إبراهيم. وله آثار علمية أفرد لها فهرستاً منها: كتاب الصافى فى تفسير القرآن الكريم (طبع فى إيران).

وأكثر كتبه أخلاقية على سبيل العرفان فى السير والسلوك، وهى تشبه

(١) استراباد بلدة صغيرة فى نواحى قبائل ترك خراسان.

كتب الغزالي ومنها: كتاب المحجة البيضاء في إحياء الأحياء، وكتاب محجة الحقائق في أسرار الدين، وكتاب تشرح العالم في بيان العالم وأجسامه وأرواحه وكيفيته، وحركات الأفلاك والعناصر وأنواع البسائط والمركبات وكتاب حدوث العالم.

راه صواب (أى طريق الصواب) بالفارسية في سبب اختلاف أهل الإسلام في المذاهب، وكتاب أبطال الجواهر الأفراد، فهرست العلوم شرح فيه أنواع العلوم وأصنافها. قال السيد الجزائري^(١): تصانيف أستاذى الفيض ترب على مائتى كتاب ورسالة، ومنهم المولى عبد الرزاق بن على بن حسين اللاهجي الجيلانى، ثم القمى كان حكيمًا متشرعًا ومتكلمًا محققًا، ومنشئًا بليغًا ومنطقيًا وشاعرًا جليلاً له مصنفات كثيرة فى الحكمة، والكلام منها تابه المشهور بگوهر مراد.

كتاب شرح تجريد نصير الدين الطوسى الفيلسوف، وهذا الكتاب فى الأمور العامة. كتاب الشوارق فى الحكمة: شرح الهياكل فى حكمة الإشراف الكلمات الطيبة فى المحاكمة بين المير الداماد وتلميذه صدر الدين فى أصالة المهية والوجود. رسالة حدوث العالم. حاشيته على حاشية الخفرى على الهيات. شرح التجريد. حاشيته على شرح الإشارات لنصير الدين الطوسى الفلكى.

وكان قد درس على صدر الدين وكان مدرساً بمدرسة قم إلى أن توفى بها بعد النصف من القرن الحادى عشر.

(١) هو السيد نعمة الله الذى سبق ذكره.

وردت كلمة موجزة في (معلمة الإسلام الإنجليزية) عن صدر الدين بقلم العالم المستشرق (كليمان هوار). وعد من تلاميذه القاضى سعيد القم، ولكن ترجمته تفيد أنه تلمذ على محسن الفيض تلميذ صدر الدين، وهو القاضى سعيد محمد بن محمد مفيد حكيم أديب عارف تولى القضاء فى (قم) وتلمذ على محسن الفيض الذى سبق ذكره. وله كتاب كبير شرح به توحيد الصدوق^(١) فى عدة أجزاء، ومنه نسخة فى خزانة كتبنا وهو شرح نفيس يشتمل على أنفس مباحث اللهوت والعرفان، وكان معظماً عند الشاه عباس الصفوى الثانى وأمرائه.

قرأ الحكميات على المولى عبد الرزاق اللاهيجى بقم، وتوفى هناك ولا يعلم على التحقيق سنة وفاته، والمظنون أن وفاته كانت فى أواخر القرن الحادى عشر أو أوائل الثانى عشر.

تأليفاته الفلسفية:

(١) كتابه الكبير الأسفار وهو مرآة فلسفته الجلية صنفه فى جبال (قم) بعد تأملاته العرفانية الفلسفية فى فاتحته يقول بعد الشكوى من العصر وأهله، فى زمن انزوائه فى بعض الديار، كما أسلفنا، ثم اهتز الخامد من نشاطى وتموج الجامد من انبساطى، إلى أن قال: فصنت كتاباً إلهياً للسالكين المشتغلين بتحصيل المال، وأبرزت حكمة ربانية للطالين لأسرار حضرة ذى الجلال والجمال وترتيبه هكذا:

(١) وعد صاحب كتاب قصص العلماء من تلاميذ الشيخ حسين.

(السفر الأول) وهو الذى من الخلق إلى الحق فى النظر إلى طبيعة الوجود وعوارضه .

و(الثانى) السفر بالحق فى الحق .

و(الثالث) السفر من الحق إلى الخلق بالحق .

و(الرابع) السفر بالحق فى الخلق .

ثم قال فرتبت كتابى هذا طبق حركاتهم فى الأنوار والآثار على أربعة أسفار، وسميته بالحكمة المتعالية فى الأسفار العقلية، ولا يخفى ما فى هذا القول من النزعة الصوفية، مع أن الكتاب يحتوى على أهم المباحث الفلسفية الإلهية، بل جميعها طبع فى إيران قبل عدة سنين .

وهم (الكونت دوغوبينو) وزعم أن هذا الكتاب الكبير أربع رحلات كتبها صدر الدين فى أسفاره، فإنه لما ذكر عدد تأليفه وقال فضلاً عن ذلك وضع أربع رحلات ووهمه نشأ من اسم الكتاب مع أنه أهم تأليفه ومرآة أفكاره الفلسفية، ولم يتدبر فى موضع الكتاب .

(٢) كتاب الواردات القلبية .

(٣) كتاب المسائل القدسية والقواعد الملكوتية .

(٤) كتاب الحكمة العرشية، شرحها الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى مؤسس مذهب الشيخية الإمامية (طبع فى إيران) .

(٥) كتاب المشاعر، شرحها الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى مؤسس مذهب الشيخية الإمامية (طبع فى إيران) .

(٦) كتاب الشواهد الربوبية، وهو من أفضل كتبه الفلسفية وأعلاها (طبع في إيران).

(٧) كتاب المبدأ والمعاد، وحاول أن يوفق فيه بين الدين والفلسفة.

(٨) كتاب في حدوث العالم، وفيه أهم آرائه الفلسفية.

(٩) كتاب شرح الهداية.

(١٠) حاشية على إلهيات الشفاء للرئيس ابن سينا الفيلسوف.

(١١) حشيته على شرح حكمة الإشراق للسهروردي.

(١٢) أجوبة على مسائل عويصة.

(١٣) أجوبة على مسائل سألها المحقق الطوسي الفيلسوف عن بعض معاصريه ولم يأت المعاصر بجوابها.

(١٤) رسالة في حل الإشكالات الفلكية، ذكر اسمها في بحث غايات الأفعال الاختيارية في الأسفار.

(١٥) رسالة في تحقيق اتصاف الماهية بالوجود (طبع في إيران).

(١٦) رسالة إكسير العارفين في معرفة طريق الحق واليقين.

(١٧) رسالة في إثبات الشوق للهيولى (المادة) أو ذراتها.

(١٨) رسالة في اتحاد العاقل والمعقول.

(١٩) رسالة في خلق الأعمال.

(٢٠) رسالة (في الحركة الجوهرية) وهى نظرية تفرد بها صدر الدين.

(٢١) رسالة في سريان الوجود وهى من أنفس تأليفه.

- (٢٢) رسالة فى الحشر .
(٢٣) رسالة فى التطور والتصديق .
(٢٤) رسالة فى الشخص .
(٢٥) رسالة فى القضاء والقدر .
(٢٦) رسالة اسمها الألواح العمادية .

تأليفه الدينية:

وله تأليف دينية من تفسير وحديث ، ولكنه انقاد فيها إلى الفلسفة أكثر من انقياده إلى الدين منها مجموعة تفسير لبعض سور القرآن الكريم وآية (طبع فى طهران) تحتوى على ١٢ رسالة :

- (١) تفسير سورة البقرة .
(٢) تفسير آية الكرسي .
(٣) تفسير آية النور ، هذه الرسالة موجود الآن بخط صدر الدين فى شيراز عند السيد عبد الحسين ذى الرياستين العارف الشهير .
(٤) تفسير سورة ألم سجدة .
(٥) تفسير سورة يس .
(٦) تفسير سورة الواقعة ، كان موجوداً بخط صدر الدين عند صاحب روضات الجنات .
(٧) تفسير سورة الحديد .
(٨) تفسير سورة الجمعة .

(٩) تفسير سورة الطارق .

(١٠) تفسير سورة سبح اسم ربك الأعلى .

(١١) تفسير سورة إذا زلزلت .

(١٢) تفسير آية (وترى الجبال تحسبها جامدة) طبعت هذه الرسائل بخط

سقيم في إيران .

(١٣) رسالة أسرار الآيات .

(١٤) كسر أصنام الجاهلية في كفر جماعة الصوفية، وليعلم أن التصوف

في كل عصره، كان يطلق على جماعة من الدراويش الأباحين،

ولكن العقليين والأخلاقين من المتصوفة، كان يطلق عليهم في

ذلك العصر بالعرفاء .

(١٥) كتاب مفتيح الغيب (طبع في إيران)

(١٦) كتاب شرح أصول الكافي تصنيف أبي جعفر محمد بن يعقوب

ابن إسحق الكليني الرازي المحدث الأمامي الشهير المتوفى سنة

(٣٢٨) أو (٣٢٩هـ)، قال صاحب روضات الجنات أنه أرفع شرح

كتب على أحاديث أهل البيت، من الأئمة عليهم السلام، وقد

سلف منا قول البعض أن أول من شرحه بالكفر صدرًا كما فرق بين

النظرين .

(١٧) حواشيه على كتاب الرواشح لأستاذه الداماد وكانت بخطه عند

صاحب الروضات .